Al-Daleel

Religion between the Sacred and the Secular in Contemporary Society:Durkheim's Analysis as a Model

Athra Sleiwa Rafou Shito
Associate Professor of Sociology of Religion, College of Arts, Al-Mustansiriyya University, Iraq.
E-mail: dr.athraaraffo@gmail.com

Abstract

This study examines the distinction between the sacred and the secular in religion, employing the analytical sociological framework advanced by the French scholar Émile Durkheim. It highlights the pivotal role of this distinction in shaping individual's and group's conception of the sacred within societies, mediated through the moral conscience developed via socialization within both the group and society at large. The study further explores the application of the sacred-secular distinction in the context of contemporary social life. Using a descriptive-analytical methodology to interpret Durkheim's perspectives, the study demonstrates that religion, by differentiating the sacred from the secular, generates a formidable force that reinforces social cohesion and collective consciousness. Society embodies a collective conscience encompassing the shared rules, norms, and values of its members. Moral conscience is not innate but emerges through socialization, with society serving as the primary source of ethical principles; individuals acquire their moral standards through ongoing social interaction. Additionally, the study contends that secularism seeks to emancipate humans from religious sacredness, to desacralize human existence, and to promote a materialist worldview governed by material values and norms.

Keywords: Religion, Sacred, Secular, Moral Conscience, Durkheim, Secularism.

Al-Daleel, 2025, Vol. 8, No. 1, PP .201-231

Received: 13/07/2025; Accepted: 02/08/2025

Publisher: Al-Daleel Institution for Studies and Research

© the author(s)

مؤسسة الدليل
للدراسات والبحوث العقدية
Al-Daleel Institution
for Doctrinal Studies
الدليل
Al-Daleel

الدين بين المقدّس والدنيوي في حياة المجتمع المعاصر.. تحليل دوركهايم نموذجًا

عذراء صليوا رفو شيتو

مدرس دكتور في علم الاجتماع الديني، كلية الآداب، جامعة المستنصرية، العراق.

البريد الإلكتروني: dr.athraaraffo@gmail.com

الخلاصة

تهدف هذه الدراسة إلى تحليل التمييز بين المقدّس والدنيوي في الدين، مستندةً إلى المقاربة السوسيولوجية التحليلية التي قدّمها العالم الفرنسي إميل دوركهايم. وتركّز على الأهمّية المحورية لهذا التمييز في تشكيل مفهوم المقدّس لدى الأفراد والجماعات داخل المجتمعات، وذلك عبر الضمير الأخلاقي الذي يتشكّل بواسطة التنشئة الاجتماعية داخل الجماعة ومن ثمّ المجتمع. كما تتناول الدراسة مفهوم المقدّس والدنيوي في واقع حياة المجتمع المعاصر. وبالاعتماد على المنهج الوصفي والتحليلي لآراء دوركهايم توصّلت الدراسة إلى أنّ الدين بفصله المقدّس عن الدنيوي، ينشئ قوّةً جبّارةً تعزّز التماسك الاجتماعي والوعي الجماعي، وأنّ المجتمع يمتلك ضميرًا جماعيًّا يمثّل مجموعة القواعد والمعايير والقيم التي يشترك فيها أفراد المجتمع. وأنّ الضمير الأخلاقي لا يولد مع الفرد، بل يتشكّل من خلال عملية التنشئة الاجتماعية، وأنّ المجتمع هو المصدر الأساسي للأخلاق، وأنّ الفرد يكتسب قيمه ومعاييره الأخلاقية من خلال تفاعله مع المجتمع. وبالإضافة إلى ذلك توصّلت الدراسة إلى أنّ العلمانية تدعو إلى تحرير الإنسان من المقدّسات الدينية ونزع القداسة عن الإنسان، والإيمان بعالم مادّي تحكمه قيم ومعايير مادّية.

الكلمات المفتاحية: الدين، المقدّس، الدنيوي، الضمير الأخلاقي، دوركهايم، العلمانية.

مجلّة الدليل، 2025، السنة الثامنة، العدد الأوّل، ص. 201 ـ 231

استلام: 2025/07/13، القبول: 2025/08/02

الناشر: مؤسّسة الدليل للدراسات والبحوث

© المؤلّف

المقدّمة

تُعدّ أعمال إميل دوركهايم من الأبحاث المهمّة في فهم دور الدين في المجتمع. ومن أهمّ مساهماته تمييزه بين المقدّس والدنيوي. يُعدّ هذا التقسيم المفاهيمي محوريًّا في نظريته عن الدين، ويوفّر منظورًا يمكّننا من فهم كيفية بناء المجتمعات لمعتقداتها وممارساتها.

المجتمع بالنسبة إلى إميل دوركهايم، هو جوهر الواقع البشري. وبحسب حدسه، الذي أكّدته بحوثه على أكثر المجتمعات بساطةً، أي قبائل أستراليا البدائية، فإنّ المجتمع هو من يصنع أفراده. وبالمعنى نفسه أيضًا فهو ليس مصدرًا للغذاء والحماية فحسب، وإنّما يتيح أيضًا وبوجه خاصّ ثقافةً مشتركةً، ومجموعةً من القيم، ورؤيةً روحانيةً للحياة. إنّ البعد البيولوجي للإنسان هو فرداني بحت، وأمّا البعد الفكري، أي الوعي، والمخيّلة، والذكاء، فيكتسب عبر المشاركة في المجتمع.

إنّ موضوع بحثنا هذا يتحدّد من خلال رؤية دوركهايم بأنّ لدى البشر نزعةً دينيةً. الإله هو المجتمع المدوّن بخطّ عريض في فكر أفراده، والدين هو إذن الخشية الموقّرة للبشر؛ إذ يرغبون في تسليم أنفسهم للخير الأكثر تساميًا، فالمجتمع ليس واقعًا موضوعيًّا موجودًا بمعزل عن أفراده فحسب، إنّما هو أيضًا واقع ذاتي مستقرٌّ بشكل رمزي في فكرهم، ويحدّد إنسانيتهم برمّتها. إنّ المجتمع الذي له وجود رمزي في الوعي الجماعي يصنع أفراده ويدعمهم ويحدّد هويتهم الجماعية. يعتقد دوركهايم بأنّ كلّ مجتمع يضع دينه الخاص؛ إذ لا يمكن للمجتمع أن يحيا من دون هذه السلطة الرمزية، ومن دون الانعكاس لهذا المجتمع في وعي الشعب الجماعي.

أبرز دوركهايم في كتابه "الأشكال الأوّلية للحياة الدينية" أنّ جميع المجتمعات تقسم العالم إلى فئتين أساسيتين: المقدّس والدنيوي. يقوم الدين على هذا الثنائي: فهو نظام موحّد من المعتقدات والممارسات المرتبطة بالأشياء المقدّسة، وأمّا الأشياء الدنيوية فتشكّل مجال الحياة العادية. ووفقًا لرؤيته، يمثّل الدين في جوهره عبادةً للمجتمع؛ إذ تعمل الطقوس المقدّسة والممارسات الجماعية على توحيد أفراد الجماعة وتعزيز التضامن الاجتماعي، كما تسهم في ترسيخ الضمير الأخلاقي في المجتمع الإنساني.

في المجتمعات الحديثة يظهر ما يُعرف بـ"الدين المدني" الذي يحلّ محلّ الأديان التقليدية. فمشاهدة الرياضة ـ على سبيل المثال ـ تعدّ شكلًا من أشكال العبادة الجماعية المعاصرة؛ إذ تكتسب الرموز (مثل كأس العالم) صفة القداسة الرمزية. وهكذا يظلّ ثنائي المقدّس والدنيوي أداةً تحليليةً فعّالةً لفهم القيم الجمعية في أيّ مجتمع حديث، حتّى مع توجّهه نحو العلمانية، وكيفية تعزيز هذه القيم.

المبحث الأوّل: مفردات البحث

أوّلًا: الدين

أ ـ المعنى اللغوي لمفردة الدين

1ـ الدين في المعجم الوسيط: من الفعل الثلاثي "دانَ". أي: خضع وتذلّل لقويٍّ متحكّم، وهو لفظٌ يطلق على مجموعة الأفكار والمعتقدات والمسلّمات من قوًى خارجية، لا يستطيع الإنسان إدراكها بحواسّه حول: الإله، والحياة، والكون، والأخلاق، والتعامل، والثواب والعقاب، وأصل الوجود والإنسان. [مجموعة مؤلّفين، المعجم الوسيط، ص 307]

2ـ الدين: الطاعة وقد دنته ودنت له، أي أطعته، والجمع: الأديان، والدين العادة والشأن كما في قول العرب: ما زال ذلك ديني وديدني أي عادتي. [ابن منظور، لسان العرب، ص 164]

3ـ والدين بالكسر العادة والشأن، ودانه يدينه دينًا بالكسر أذلّه وأستعبده فدان، والدين أيضًا الجزاء والمكافأة، يقال: دان يدينه دينًا أي جازاه، يقال: كما تَدينُ تُدانُ أي كما تُجازي تُجازى بِفْعلِكَ وبحسب ما عملت، وقوله تعالى: ﴿**أَإِنَّا لَمَدِينُونَ**﴾ [سورة الصافات: 53] أي لمجزيون محاسبون [الرازي، مختار الصحاح، ص 218]. وفي الحديث يقول الرسول ﷺ: «الكيّس من دان نفسه وعَمِلَ لِما بعد الموت» [ابن ماجة، سنن ابن ماجة، كتاب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد، رقم الحديث: 4260]، فدان نفسه أي: حاسبها وقهرها وحاكمها، ويقول ابن فارس: «الدال والياء والنون، أصل واحد يرجع فروعه كلّها، وهو جنس الانقياد والذلّ، فالدين: الطاعة، يقال: دان له يدين دينًا، إذا أصحب وأنقاد وطاع. وقوم دين، أي مطيعون» [ابن زكريا، معجم مقاييس اللغة، ص 319].

كما له معانٍ أخرى، فالدين في اللغة: العادة والحال والسيرة والسياسة والرأي والحكم والطاعة والجزاء، ومنه: كما تدينُ تُدان. ودان الناس يعني قهرهم على الطاعة، والدين هو الحساب ومنه قوله تعالى: ﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾ [سورة الفاتحة: 3]، وقيل في معناه مالكِ يوم الجزاء، والدين هو الطاعة، وقد دنته ودنت له أي أطعته، والجمع أديان، فيقال: دان بكذا ديانة فهو ديّن ومتديّن، ويشار إلى الدين عادةً على أنّه ما يتديّن به الإنسان، جمعه ديانة وأديان وهو اسمٌ لجميع ما يعبد به الإله والحكم والمذهب. [ابن منظور، لسان العرب، ص 458]

ب ـ الدين في اصطلاح بعض المفكّرين الغربيين

1 ـ الدين (Religion): هو مجموعة من المعتقدات والتجارب والطقوس التي تشرك الإنسان أو المجتمع في تجربة ما يعدّ مقدّسًا، وخاصّةً مع الألوهية، وباختصار: «الدين هو اعتقاد، أو مجموعة من المعتقدات، تتعلّق بوجود واقع ما فوق الحسّي، وعالم آخر، وخارق للطبيعة».

[Bagnasco, Arnaldo, La Religione, in Corso di Sociologia, p. 234]

2 ـ الدين هو مؤسّسة اجتماعية متميّزة بوجود آلاف من الأفراد المتّحدين بأداء بعض العبادات المنتظمة، واعتماد بعض الصيغ، والاعتقاد بقيمة مطلقة لا يمكن وضع شيء آخر في كفّة ميزانها، وهو اعتقاد تهدف الجماعة إلى حفظه؛ إذ ينتمي الفرد إلى قوّة روحية أرفع من الإنسان، وينظر إليها بوصفها قوّةً منتشرةً إمّا كثيرةً وإمّا وحيدةً هي الإله. [انظر: لالاند، الموسوعة الفلسفية، ص 1203 و1204]

3 ـ وفي تعريف آخر يجسّد الدين نسقًا فرديًّا لمشاعر واعتقادات وأفعال مألوفة موضوعها الإله، والدين تحديدًا هو المطالبة بوجهة نظر الإيمان إلى جانب وجهة نظر العلم. وهو أيضًا الاحترام الضميري لقاعدة العادة والشعور، وكان هذا المعنى في الماضي أكثر تداولًا ممّا هو عليه اليوم. [انظر: أبو زايد، الدين في حياة الإنسان، ص 154 و155]

4 ـ والدين كما يراه ماكس شيلر (Max Scheler) علاقة البشر بما يعدّونه مقدّسًا أو مطلقًا أو روحيًّا أو إلهيًّا أو يستحقّ تبجيلًا خاصًّا. ويُنظر إليه أيضًا بشكل شائع على أنّه يتكوّن من الطريقة التي يتعامل بها الناس مع المخاوف النهائية بشأن حياتهم ومصيرهم بعد الموت. في العديد من التقاليد، يتمّ التعبير عن هذه العلاقة وهذه المخاوف من حيث علاقة المرء بالآلهة أو الأرواح أو موقفه تجاهها؛ وفي أشكال الدين الأكثر إنسانيةً أو طبيعيةً، يتمّ التعبير عنها من حيث علاقة المرء بالمجتمع البشري الأوسع أو العالم الطبيعي أو مواقفه تجاهه. تعدّ العبادة والسلوك الأخلاقي والمعتقد الصحيح والمشاركة في المؤسّسات الدينية من بين العناصر المكوّنة للحياة الدينية. [انظر: أوغسطين، ماكس شيلر وتعريفه للدين، https://www.britannica.com/topic/religion]

5 ـ تعريف دوركهايم (David Émile Durkheim) للدين: «مؤسّسة اجتماعية قِوامها: التفريق بين المقدَّس وغير المقدَّس. ولها جانبان: أحدهما روحي مؤلّف من العقائد والمشاعر الوجدانية، والآخر مادّي مؤلّف من الطقوس والعادات» [صليبا، المعجم الفلسفي، ص 573].

ثانيًا: المقدّس (The Sacred)

يشير مصطلح المقدّس إلى ما يرتبط بالأغراض الدينية ويتعلّق بالإله. قد تشمل هذه الأمور العقائد الدينية، والمعتقدات، والقوانين، والعادات، أو ما يُبجّله أو تحترمه جماعة دينية أو شخص ديني. [دوركهايم: الدين والمجتمع، انظر: https://triumphias.com/blog/emile-durkheim-religion-and-society]

ثالثًا: الدنيوي (The Profane)

يشير مصطلح الدنيوي إلى ما لا يُعدّ مقدّسًا أو دينيًّا، بل دنيويًّا بطبيعته. قد تشمل هذه الأشياء الأشخاص وسلوكياتهم، بالإضافة إلى الأماكن أو الأشياء المادّية. قد تشمل أنواع السلوكيات البشرية "الدنيوية" الآراء أو الأفعال غير المحترمة أو غير الموقّرة المعبّر عنها بشأن دين أو ممارساته، أو استخدام لغة بذيئة أو تجديفية. [انظر: المصدر السابق]

رابعًا: المعتقد الديني (Religious Belief)

هو أوّل أشكال التعابير الجمعية عن الخبرة الدينية الفردية التي خرجت من حيّز الانفعال العاطفي إلى التأمّل الذهني، والمعتقد هو الذي يعطي للخبرة الدينية شكلها المعقول الذي يعمل على ضبط أحوالها وتقنينها؛ فيتدخّل عقل الإنسان من أجل صياغة التجربة الداخلية وإظهارها بشكلها المقدّس في العالم الخارجي. [انظر: بوخالفة، قصّة الخلق والتكوين بين النصّ الديني والأساطير القديمة، ص 61]

خامسًا: الضمير الأخلاقي (Moral Conscience)

هو القيم والمعتقدات المشتركة للمجتمع، ومن أهمّ وظائف الدين تعزيز هذا الضمير. ولا وجود للمجتمع بدونه، وفقًا لدوركهايم؛ لأنّ عبادة الدين هي عبادة المجتمع، فإنّ الدين يُضفي على المجتمع صفةً مقدّسةً، ما يعني أنّ لديه قدرةً أكبر على التأثير في العمل الاجتماعي وبناء التضامن الاجتماعي. [دوركهايم، الدين والمجتمع، انظر: https://triumphias.com/blog/emile-durkheim-religion-and-society]

سادسًا: الدين في الحياة الاجتماعية (Religion in Social life)

هو كلّ حضور للدين في حياة الإنسان والذي يعدّ تديّنًا، لا دينًا في الأرض خارج ذلك، التديّن يتحقّق في سلوك الإنسان وتفكيره وتعبيره. ولا يستقلّ الدين عن ثقافة الإنسان

وذاكرته الفردية وهويته الجمعية ونمط تمدّنه وعمرانه. يحضر الدين في حياة الفرد والمجتمع بأنماط تديّن فردية ومجتمعية متنوّعة، ويختلف التديّن باختلاف مستوى الثقافة ونوعها، ودرجة التطوّر الحضاري، وكيفية رؤية العالم، ومختلف العوامل المنتجة لطريقة عيش الفرد والمجتمع. [انظر: الرفاعي، الدين والنزعة الإنسانية، ص 223]

سابعًا: الظاهرة الدينية (Religious Phenomenon)

هي ظاهرة بشرية واسعة تعبّر عن العلاقة بين الإنسان والوجود الأعلى، وتتضمّن معتقداتٍ، وممارساتٍ، وطقوسًا توفّر إطارًا لمعنى للحياة وتفسيرًا للواقع. إنّها ظاهرة متعدّدة الأبعاد تشمل الجوانب النفسية، والاجتماعية، والثقافية، والسياسية، والاقتصادية، والأخلاقية، والفلسفية. [انظر: دوركهايم، الأشكال الأوّلية للحياة الدينية.. المنظومة الطوطمية في أستراليا، ص 60]

المبحث الثاني: السياقات الفكرية والتاريخية المفسّرة للدين

أوّلًا: أفلاطون

أفلاطون من الفلاسفة اليونان الذين درسوا فكرة الإله، ومن خلال أفكاره، نجد بأنّه أدرك الألوهية واعترف بوجود الإله لهذا الكون، ويقرّر أنّ حركات الكون سبع، وهي حركة دائرية ومن اليمين إلى اليسار، ومن اليسار إلى اليمين، ومن الأمام إلى الخلف، ومن الخلف إلى الأمام، ومن الأعلى إلى الأسفل ومن الأسفل إلى الأعلى. وحركة العالم دائرية منظّمة لا يستطيع العالم القيام بها بذاته فهي معلولة، العلّة عاقلة وهذه العلّة هي الإله، كما يصف الإله بالوحدة والوجود المنفرد عن كلّ من سواه، ويستحقّ أن يكون فوق كلّ موجود. ومن صفات الإله عند أفلاطون هي أنّه روح، عاقل، محرّك، منظّم، جميل، خير، عادل، كامل، بسيط لا تنوّع فيه، ثابت لا يتغيّر، صادق لا يكذب، لا يخضع للزمان ولا للمكان، ويكون وحده حاضرًا مستمرًّا. [انظر: بشارة، الدين والعلمانية في سياق تاريخي، ص 236]

ثانيًا: أرسطو

يعدّ أرسطو الإله ثابتًا ولا يتحرّك، فهو العلّة الأولى أو المحرّك الأوّل الذي لا يتحرّك ولا يتأثّر لا بعامل الزمن ولا المكان، ولا بدّ لهذه المتحرّكات من محرّك يقوم عليها، ووجود الأجسام المتحرّكة دليل قاطع على وجود محرّك، ينتهي العقل إلى محرّك بذاته أو محرّك لا يتحرّك؛ لأنّ

العقل لا يقبل التسلسل في الماضي إلى غير نهاية. والحركة والزمان أزليان أبديان والحركة عرض للجوهر والزمان مقياس الحركة، وبالتالي توجد جواهر دائمة غير متحرّكة. [انظر: عبد الرحمن بدوي، الموسوعة الفلسفية، ص 109]

ـ في العصور الوسطى، نذكر كلّ من كتبوا في هذه الفترة (القديس أوغسطين و سبينوزا)

ثالثًا: أوغسطين

يعدّ أوغسطين (Augustine of Hippo) من أهمّ الفلاسفة اللاهوتيين المسيحيين. تعدّدت أفكاره في هذه الحقبة وأثّرت في مختلف مراحل التاريخ الفكري المسيحي، قبل التنوير وبعده، وذلك من خلال تجربته الدينية الفريدة التي انتقل فيها من المانوية إلى المسيحية.

أمّا فيما يخصّ موضوع الفطرة والقانون الطبيعي، نجده في هذه الدراسة يظهر مدى عمق الإحساس بالقانون الطبيعي في جوانبه المختلفة على مستوى الإنسان والمجتمع والطبيعة، والذي يصل إلى العناية الإلهية ودورها في حركة الوجود. يعدّ أوغسطين الإله خالق الطبيعة ومبدعها، ونحن بدورنا نعبد هذا الإله الذي يرسم الطبيعة في أصولها، وهو خالقها وغاية حركتها ومداها في الزمن. [انظر: أوغسطينوس، مدينة الله، ص 174]

رابعًا: سبينوزا

تقوم فلسفة الدين عند سبينوزا (Baruch Spinoza) على عناصر مهمّة وهي النبوّة أو الوحي والأنبياء، كما درس القانون الإلهي إضافةً إلى المعجزات. فصّل سبينوزا هذه العناصر كلّ واحد منها على حدة، فيبدأ بالنبوّة أو الوحي؛ إذ تعدّ بمنزلة المعرفة اليقينية التي يوحي بها الإله إلى البشر، ويعدّ النبيّ هو الذي يفسّر ما يوحي به الإله لأمثاله من الناس؛ إذ يعدّ النبوّة تتطابق تمامًا مع المعرفة الفطرية؛ لأنّ ما نعرفه بالنور الفطري يعتمد على معرفة الإله وحدها وعلى أوامره الأزلية. والإنسان دائم البحث عن معارف خارقة وهو مولع بالنوادر والخوارق وهذا ما يجعله يحتقر المعرفة الفطرية ويعدّها بسيطةً تتطابق مع المعرفة النسبية، في حين أنّ المعرفة الفطرية حقٌّ في أن تسمّى معرفةً إلهيةً؛ لأنّها أثر من آثار الطبيعة الإلهية ومن آثار الأوامر الإلهية؛ لهذا فإنّ المعرفة الفطرية هي معرفة إلهية في معناها العميق، وهذا ما يجعل الذين يقومون بإنشائها يسمّون أنبياء البشر؛ إذ يستطيعون استيعاب تعاليمها دون الاعتماد على الإيمان وحده. [انظر: سبينوزا، رسالة اللاهوت والسياسة، ص 119]

خامسًا: دوركهايم ونظريته عن الدين: تعتمد نظرية إميل دوركهايم في الدين بشكل كبير على مفهومي المقدّس والدنيوي. ويفيد إدراك التعريفات العامّة لكلا المصطلحين في فهم معانيهما في سياق نظرية دوركهايم. يرى دوركهايم أنّ الدين هو ممارسة جماعية لتمييز المقدّس عن الدنيوي والحفاظ على مسافة بينهما. ويتمّ ذلك عادةً من خلال طقوس، كتلك المرتبطة بالزيارة اليومية أو الأسبوعية للكنيسة أو المسجد. والصلاة مثال واضح على طقس مقدّس منفصل عن الحياة اليومية (أو الدنيوية).

من المهمّ بالنسبة لدوركهايم أنّ أيّ شيء يمكن أن يكون مقدّسًا (أو بالأحرى، يمكن للمجتمع أن يقرّر أنّ أيّ شيء مقدّس) ليس الكنائس والمساجد والكتب الدينية وحسب، بل في بعض الثقافات، قد تعدّ الأشجار، أو حتّى الصخور، مقدّسةً. يرى دوركهايم أنّه من أجل فهم دور الدين في المجتمع؛ لا بدّ من اكتشاف العلاقة بين الرموز المقدّسة وما تمثّله.

[انظر: فورنييه، إميل دوركهايم، ص 233 - 237]

أ_ الطوطمية

عدّ دوركهايم الطوطمية من أقدم أشكال الممارسات الدينية وأبسطها. وهي شائعة بين الشعوب الأصلية، مثل سكّان أستراليا الأصليين، وسكّان أمريكا الأصليين في شمال غرب البلاد، الذين عاشوا في مجتمعات عشائرية.

استخدم دوركهايم الدين الطوطمي لسكّان أستراليا الأصليين لتطوير نظريته الدينية. كان مجتمع السكان الأصليين منقسمًا إلى عدّة عشائر، وكان على أفراد كلّ عشيرة واجبات معيّنة يجب الوفاء بها، مثل الحداد على موت أفراد آخرين من العشيرة أو المساعدة في الانتقام إذا تعرّض أحد أعضائها لظلم من شخص من خارجها. كان لكلّ عشيرة طوطم، عادةً ما يكون حيوانًا أو نباتًا، يمثّل برسومات أو نقوش على الخشب أو الحجر، ويرتبط عادةً بأسطورة الخلق التي تشرح أصول تلك العشيرة وتربط أعضاءها الحاليين بتاريخها. وقد ميّز الطوطم العشيرة عن جميع العشائر الأخرى. بالنسبة لأعضاء العشيرة، كان الطوطم بمنزلة كائن مقدّس، وكان التمثيل الطوطمي مقدّسًا بالقدر نفسه إن لم يكن أكثر من ذلك. السبب وراء حاجة البشرية إلى طوطم للعبادة بدلًا من مجرّد عبادة المجتمع حرفيًّا (أو العشيرة في حالة السكّان الأصليين) هو أنّ العشيرة شيء معقّد للغاية، بحيث لا يستطيع الناس تصوّره، وأمّا الرموز الدينية فهي مجرّد كيانات أبسط بكثير للعبادة!

إنّ الفكـرة الأساسـية لدى دوركهايـم هي أنّ أعضـاء العشـيرة عندمـا يعبـدون الطوطـم فإنّهـم في الواقـع يعبـدون المجتمـع، وبالتـالي يتـمّ تذكـير الأفـراد بـأنّ المجتمـع أكـثر أهمّيـةً مـن الفـرد، وهـو أمـر أسـاسي في النظريـة الوظيفيـة؛ لأنّ الأفـراد يعتمـدون على المجتمـع. عندمـا يجتمـع النـاس في طقـوس دينيـة، فإنّهـم يعـزّزون روابطهـم الاجتماعيـة. ومـن خـلال العبـادة، يعـبّرون عـن إيمانهـم بقيمهـم المشـتركة. ومـن خـلال عبـادة الديـن يـدرك النـاس واجباتهـم تجـاه المجموعـة الاجتماعيـة واعتمادهـم على المجتمـع. [انظر: والاس، الدين وجهة نظر أنثروبولوجية، ص 14 و15]

تعـدّ الطقـوس الدينيـة آليـاتٍ قويـةً للترابـط الاجتمـاعي في المجتمعـات التقليديـة. فـفي هـذه المجتمعـات، غالبًـا مـا يكـون الأسـلاف محـور العبـادة. وهكـذا، يتواجـد الضمـير الجمـاعي في نفـوس الأسـلاف، وبالتـالي تُعـزّز الطقـوس الدينيـة فكـرة وجـود الضمـير الجمـاعي داخـل الفـرد.

والخلاصـة، يـرى دوركهايـم أنّ جوهـر الطوطميـة يكمـن في تبجيـل قوّة غـير شـخصية، مجهولة، متأصّلـة ومتعاليـة في آن واحـد. هـذه القـوّة المنتـشرة والمتعاليـة ليسـت سـوى المجتمـع نفسـه، المرتبـط ارتباطًـا وثيقًـا بالأفـراد. عـلاوة على ذلـك، يفـترض دوركهايـم أنّـه كمـا خلقـت المجتمعات السـابقة آلهـةً وأديانًـا ، فـإنّ المجتمعـات المسـتقبلية تميـل إلى توليـد آلهـة ونظـم عقديـة جديـدة خـلال فـترات الحمـاس المتزايـد. عندمـا تغمـر المجتمعـات البهجـة بالمقدّسـات، ويشـارك الأفـراد في طقـوس دينيـة وشـعائر وأعيـاد ومهرجانـات، تسـود حالـة مـن النشـوة الجماعيـة. إنّ الرقـص والـصراخ والانغمـاس في هـذه التجربـة الجماعيـة الغامـرة، ينقـل الأفـراد إلى مـا هـو أبعـد مـن واقعهـم المعتـاد، وفي هـذه اللحظـات، تظهـر آلهـة وأديـان جديـدة.

المبحث الثالث: مقاربات سوسيولوجية للدين بين المقدّس والدنيوي

أوّلًا: المقدّس مقابل الدنيوي في نظرية دوركهايم للدين

نظريـة دوركهايـم في الديـن هي بحـثٌ في القـوى الاجتماعيـة المشـتركة والمؤثّـرات الأخـرى الـتي تُسـبّب الحيـاة والإدراك الدينيـين لدى مختلـف الفئـات الاجتماعيـة في أيّ وقـت. وفي كتابه "الأشـكال الأوّليـة للحيـاة الدينيـة" يُطبّـق دوركهايـم مفهـوم الديـن في سـياق بحثـه، فيكتـب: «الديـن نظـامٌ موحّـدٌ مـن المعتقـدات والممارسـات المتعلّقـة بالأشـياء المقدّسـة، أي الأشـياء المنفصلـة والمحرّمـة. [وهـو] معتقـدات وممارسـات تجمـع في مجتمـع أخـلاقي واحـد يُسـمّى الكنيسـة أو المسـجد أو أيّ مـكان رمـزي للعبـادة ... إلـخ. جميـعَ مـن يعتنقونهـا».

[Durkheim, The Elementary Forms of Religious Life, pp. 50 - 55]

بحسب دوركهايم، يُعرّف الدين بأنّه نظام متماسك من المعتقدات والممارسات، متمحور حول كيانات مقدّسة تُعدّ متميّزة ومحرّمة. تعمل هذه المعتقدات والممارسات على توحيد الأفراد في مجتمع أخلاقي واحد يُسمّى الكنيسة، ويضمّ جميع أتباعها. تكمن قوّة الدين في المعتقدات والطقوس المشتركة التي تُنشئ شعورًا بالترابط الاجتماعي بين الناس. ولا تتعلّق رموز المعتقدات والممارسات الدينية بالعالم الخارجي أو بالطبيعة البشرية الفردية، بل تتعلّق حصرًا بالنسيج الأخلاقي للمجتمع. [See: Ibid, pp. 60 – 64]

عند استكشافه أصول الدين، ينحرف دوركهايم عن مفهومي الروحانية والطبيعية، ويركّز على الطوطمية لدى القبائل الأسترالية. فالأشياء العادية، سواء أكانت خشبًا أم أحجارًا أم نباتاتٍ أم حيواناتٍ، تكتسب مكانةً مقدّسةً عندما تحمل شعار الطوطم. ويدلّ الطوطم على إيمان متأصّل بقوّة أو مبدإ غامض أو مقدّس يُرسّخ المحرّمات، ويغرس المسؤوليات الأخلاقية داخل الجماعة، ويضفي حيويةً على الطوطم نفسه. وتماشيًا مع تركيزه الأوسع على التحليل الاجتماعي للظواهر الاجتماعية، يسلّط دوركهايم الضوء على الأنشطة الجماعية باعتبارها مهد المشاعر والأفكار الدينية. [انظر: مجموعة من الباحثين، مجموعة من الدراسات والبحوث في علم الاجتماع، ص 468 – 469]

كيف يعتقد دوركهايم أنّ الدين ينشأ ويعمل؟ للإجابة على هذا التساؤل، وفقًا لدوركهايم، فإنّ الدين يأتي إلى الوجود ويكتسب الشرعية من خلال لحظات ما يسمّيه "الفوران الجماعي". يشير الانفعال الجماعي إلى لحظات في الحياة المجتمعية تجتمع فيها مجموعة الأفراد الذين يشكّلون المجتمع معًا لأداء طقوس دينية. خلال هذه اللحظات، تجتمع المجموعة وتتواصل في الفكر نفسه وتشارك في العمل نفسه، ممّا يعمل على توحيد مجموعة الأفراد. عندما يكون الأفراد على اتّصال وثيق مع بعضهم، وعندما يتمّ تجميعهم بهذه الطريقة، يتمّ إنشاء طاقة روحية معيّنة وإطلاقها، ممّا يقود المشاركين إلى درجة عالية من التفاعل والإثارة العاطفية الجماعية أو الهذيان. هذه القوة غير الشخصية خارج الفرد هي عنصر أساسي في الدين، وتنقل الأفراد إلى عالم مثالي جديد، وترفعهم خارج أنفسهم، وتجعلهم يشعرون كما لو كانوا على اتّصال مع طاقة غير عادية. والخطوة التالية في نشأة الدين هي إسقاط هذه الطاقة الجماعية على رمز خارجي. وكما يقول دوركهايم، لا يمكن للمجتمع أن يصبح واعيًا بهذه القوى المنتشرة في العالم الاجتماعي إلّا من خلال تمثيلها بطريقة ما؛ لذلك يجب تجسيد قوّة الدين، أو جعلها مرئيةً بطريقة أو بأخرى، ويصبح الموضوع الذي تُسقط عليه هذه القوّة مقدّسًا. يتلقّى هذا الشيء المقدّس القوّة الجماعية وبالتالي يتمّ غرسه بقوّة المجتمع. وبهذه

الطريقة يكتسب المجتمع فكرةً أو تمثيلًا ملموسًا لنفسه. عند مناقشة هذه الأمور، يحرص دوركهايم على استخدام كلمة "الشيء المقدّس" لوصف ما يُفهم تقليديًّا في الغرب على أنّه إله؛ وذلك لأنّ الأشياء المقدّسة يمكن أن تكون متنوّعةً جدًّا ولا تشير بالضرورة إلى آلهة خارقة للطبيعة. [انظر: جونز، إميل دوركهايم.. مقدّمة لأربعة أعمال رئيسية، ص 115 – 145]

على سبيل المثال، يعدّ الإله شيئًا مقدّسًا للمجتمعات المسيحية، وكان الثور شيئًا مقدّسًا لمجتمع الفايكنج، لكنّ الحقائق الأربع النبيلة هي أيضًا أشياء مقدّسة عند البوذيين، وكما نرى أصبح الشخص الفردي شيئًا مقدّسًا للحداثة في المجتمع الغربي. يمكن أيضًا أن تصبح الأشياء المادّية، مثل الصخور والريش والطوطم والصلبان وما إلى ذلك، مشبعةً بقوّة الجماعة، وبالتالي تصبح مقدّسةً وتكون بمنزلة تذكير مادّي لوجود المجتمع.

في جوهره، يخدم الدين بوصفه مؤسّسةً اجتماعيةً غرض توفير المعنى للمعضلات الوجودية الإنسانية من خلال ربط الأفراد بعالم القيم المتعالية التي تتجاوز الفرد، والتي تجد جذورها في نهاية المطاف داخل مجتمعها؛ لذلك اهتمّ إميل دوركهايم بدراسة النظم والممارسات الدينية وتفسيرها، مفترضًا أنّ الدين مسألة اجتماعية وليس مسألةً فرديةً، وبأنّه نظام من المعتقدات المقدّسة، وأنّ مشاركة المجتمع في تلك الممارسات ضرورة استمرارية نابعة من هذه المشاركة، وإذا كانت درجة استمرارية النظام الديني ترتكز على قوّة الإيمان بتلك العقائد والأوامر، فكيف يمكن لتلك الأوامر الاجتماعية أن تتحقّق، خاصّةً وأنّ المجال الديني يعدّ من النظم الرئيسية داخل المجتمع؟ يقدّم دوركهايم جوابًا يؤكّد فيه أهمّية العطاء للجماعة الدينية، وممارسة الطقوس الدينية التي من شأنها أن تدور حول خدمة أعضاء المجتمع. فالأشياء المقدّسة هي تلك التي قام المجتمع نفسه بإعدادها، بينما الأشياء الدنيوية هي تلك التي شكّلها كلّ واحد منّا بواسطة معطيات مشاعره وخبرته، هذا التعارض يختلط فيه ذلك الذي يتعلّق بما هو روحي مع ذلك الذي يخصّ ما هو دنيوي، أو ذلك المتعلّق بما هو فردي مع ما هو اجتماعي. [المصدر السابق، ص 150 – 155]

فالمجتمع هو الذي يدفع إلى وحدة الوعي المتولّد عن اللاشعور بالاعتماد المشترك، والمجتمع نفسه هو الذي يتولّى الأفراد تشريفه وتكريمه عندما يحتفلون بآلهتهم، لدى المجتمع كلّ ما هو ضروري ليبعث في النفوس عبر الفعل الوحيد الذي يمارسه عليها مشاعر الألوهية، ذلك أنّ المجتمع بالنسبة لأفراده هو بمنزلة الإله بالنسبة للمؤمنين في الواقع، المجتمع أيضًا يحتفظ في داخلنا بشعور الاعتماد الأبدي. إنّه يطلب منّا أن نتخلّص من مصالحنا، أن نكون

خدّامه، ويرغمنا على كلّ أنواع الموجودات، والممنوعات، والتضحيات، التي بدونها تصبح الحياة الاجتماعية محالةً؛ كذلك الفعل الاجتماعي لا يتوقّف عند طلبه منّا التضحيات أن يطلب بذل الجهود ويفرض المحرّمات. إنّ المجتمع يتغلغل وينتظم داخلنا، إنّه يصبح جزءًا لا يتجزّأ من وجودنا، وهذا في حد ذاته يعظّم ويرفع من وجودنا، يدفع هذا الاتّحاد في الوعي عندما يبلغ درجةً كافيةً من التركيز المشترك، ويثبت في أشياء وكائنات يفترض أن تكون حاملةً للقوّة المولّدة للشعور الجماعي. بناءً على ذلك يُعترَف بأنّ هذه القوى مقدّسة. إنّ القوّة الدينية ليست إلّا الشعور الذي تُلهِم الجماعة أعضاءها به، ولكنّه شعور مصمّم خارج الوعي الذي يقبله ويُضفي عليه الموضوعية؛ ولكي يُضفي الوعي الموضوعية على هذا الشعور يقوم بالتركيز على موضوع يصبح بالتالي مقدّسًا. إنّ الشعور بالقداسة هو شعور نابع من ذاته غير قابل للاختزال إلى شيء آخر، كما أنّه يستمدّ خصوصيته من الحقيقة التي يخاطبها بعيدًا عن الأشياء التي هي تعبيرات رمزية. [هيرفيه، سوسيولوجيا الدين، ص 204 و205]

ففي التحليل الذي قدّمه في كتابه "الصور الأوّلية للحياة الدينية" للنظام الطوطمي للبدائيين الأستراليين أراد التمييز بين المقدّس والدنيوي، المقدّس جمعي، بينما الدنيوي تعبير عن الحياة الفردية والخاصّة، ومن هنا فالمقدّس أخلاقي بينما الدنيوي حسّي. وقد عدّ دوركهايم الدين منظومةً متماسكةً من المعتقدات والممارسات المتعلّقة بأمور مقدّسة، أي منفصلة، محرّمة، وتنهض على فكرة المقدّس، وتوحّد بين المؤمنين بهذه المعتقدات في مجتمع ديني اجتماعي له قيم أخلاقية مشتركة. [الخشت، تطوّر الأديان، ص 79 و80]

والدين، بوصفه أقدم ظاهرة إنسانية وأشملها، لا يُفهم ويُفسَّر إلّا إذا فُهم بوصفه ردّ فعل من الإنسان على دعوة مقدّسة وُجّهت إليه مسبقًا. والمقدّس بكلّ ما تحمله الكلمة من معنًى هو الاله. يفهم الإنسان المُقدّس على أنّه "الآخر المُطلق"؛ ولذلك يُدرك نفسه كائنًا تابعًا مُستعدًّا للخضوع. في الوقت نفسه، انطلاقًا من وعيه بشخصيته، يشعر بأنّه مندفع نحو الهيمنة والمبادرة. يدرك الإنسان المقدّسَ لأنّه يتجلّى في أشياء مختلفة (تجلّيًا)، مثل السماء، والنجوم، والماء، والأشجار، والنباتات، والأحجار. هذه الأشياء لا تُعبَد أبدًا في ذاتها، بل دائمًا لأنّ المُقدّس يتجلّى فيها، فالحجر المقدّس يبقى حجرًا، ولكن من خلال تجلٍّ يتحول إلى حقيقة خارقة للطبيعة بالنسبة للإنسان المتديّن. إنّ للمقدّس طابعًا شخصيًّا تمامًا؛ لأنّ قدسية الأشياء والأماكن والأفعال تتشكّل من خلال علاقتها الملموسة بالأشخاص المقدّسين، وفي نهاية المطاف، دائمًا مع الإله.

إنّ دوركهايم في كتابه "الانتحار" اكتشف الدين من خلال الدور الذي يلعبه في حياة الأفراد والجماعات ومواقفهم وسلوكهم. والدين ـ كما سبق ذكر تعريفه ـ هو منظومة متلاحمة من الاعتقادات والممارسات المرتبطة مع أشياء مقدّسة، بمعنى مفصولة، وممنوعة، ومعتقدات وممارسات تجمع في جماعة أخلاقية واحدة. ويمكن تلخيص خاصّيات المقدّس عند دوركهايم بالشكل التالي:

1ـ انفصال الشيء أو الفكرة عن الواقع لتصبح مختلفةً جذريًّا عن المدنّس الواقعي. إنّ المقدّس عنده هو المدنّس الذي تغيّر طبيعته ودلالته بفضل إرادة الإنسان. من هنا فإنّ الإنسان هو الذي يخلق وينتج المقدّس.

2ـ هذا الانفصال ناجم عن سيرورة اجتماعية.

3ـ يخلق النظام الاجتماعي في اللحظة التي يستطيع فيها الإنسان أن يعزل داخل المجتمع مكانًا لشرعنة القواعد والقيم الجماعية التي تفرض لضمان حدٍّ أدنى من الانسجام الاجتماعي.

وهكذا، فإنّ الدين عند دوركهايم هو الشكل المنظّم والمؤسّساتي للمقدّس، هذا من جهة، وهو نمط لإنتاج المعايير الجماعية والوعي الاجتماعي من جهة ثانية. وهو بالتالي، ما يضمن ويحقّق الاندماج الاجتماعي. من هنا تظهر أهمّية الطقوس الدينية، التي تبقي على الوعي الجمعي في حالة صحو دائمة.

يمكن عدّ الدين ظاهرةً سلوكيةً، تهمّ العلاقات الاجتماعية للفرد داخل محيطه الاجتماعي. هكذا تحوّل الموضوع من دراسة الدين، إلى دراسة ظاهرة التديّن. فما يهمّ عالم الاجتماع ليس الدين بوصفه إيمانًا روحيًّا للفرد والجماعة، ومعتقداتٍ تجيب على قلق الإنسان أمام العالم والمصير الوجودي، بل ما يهمّه هو المظهر الاجتماعي والثقافي الذي يأخذه هذا الإيمان، على مستوى الحياة العامّة للمجتمع، والتجسّد المؤسّساتي والتنظيمي الذي يترجم هذه المعتقدات إلى معانٍ تاريخية وسلطة دنيوية. ويركّز دوركهايم على دور الدين الاجتماعي في حفظ علاقات الأفراد، وتعزيز أواصر التضامن الجمعي، فالدين كما يراه دوركهايم هو نتاج العقل الجمعي، ومن صنع المجتمع ونتاجه. [انظر: الرفاعي، الدين والنزعة الإنسانية، ص 70]

يؤكّد دوركهايم في مقاربته السوسيولوجية وتحليله الاجتماعي أنّ الدور الأساسي للدين هو ترسيخ التماسك الاجتماعي وتعزيزه والحفاظ عليه. فهو يعمل كآلية للضبط الاجتماعي

والتضامن. وحسب رأيه، تنشأ الظواهر الدينية في أيّ مجتمع عند التمييز بين المجال الدنيوي للأنشطة العملية اليومية والمجال المقدّس المتعلّق بالأمور المتسامية والاستثنائية.

بمعنى أنّ الثقافة ومنظومات القيم المتضمّنة فيها هي التي تتولّى ضبط التفاعل الاجتماعي وتنظيمه، فهو يتدفّق باتّجاه تأكيد التماسك والاستقرار الاجتماعي، وذلك من خلال أربعة أبعاد أساسية. يتمثّل البعد الأوّل في دور منظومات القيم وفاعليتها باعتبارها تكويناتٍ رمزيةً قائمةً في فضاء المجتمع، تحدّد للبشر الصواب والخطأ في مختلف المواقف الاجتماعية. وبهذا المعنى فهي الموجّهات التي توجّه سلوكيات البشر وعلاقاتهم مع بعضهم في مختلف المجالات الاجتماعية بوصفها قيم الأمانة والشرف والخير والإيجابية. ويتحدّد البعد الثاني من خلال تحوّل القيم إلى معايير وتقاليد وأعراف تتولّى تنظيم التفاعل الاجتماعي وضبطه على صعيد العلاقات الاجتماعية في مختلف مجالات المجتمع، بحيث نجدها الرقيب الاجتماعي على السلوكيات الفردية. ومن خلال البعد الثالث تتولّى الثقافة ومنظومات القيم ضبط التفاعل الاجتماعي بين البشر في المجتمع؛ إذ يتوقّع كلّ فرد أن يتفاعل مع فعل الآخر أو الاستجابة له، استنادًا إلى اشتراكهما في الثقافة المشتركة التي توجّه تفاعلاتهما معًا. في حين يؤدّي البعد الرابع فاعليته من خلال استيعاب الشخصية ونمط العلاقات الاجتماعية في المجتمع لمنظومات قيم الثقافة من خلال عملية التنشئة الاجتماعية. وذلك يعني أنّ الدين يربط الأفراد ببعضهم في نطاق المجتمع من خلال حقيقة العلاقات الاجتماعية بينهم والثقافة والقيم من خلال التفاعل الاجتماعي، إضافةً إلى تفاعلهم وتواصلهم مع بعضهم استنادًا إلى قيم المجتمع ورموزه، إلى جانب تأسيس الالتزامات المتبادلة بينهم والوفاء بهذه الالتزامات، وهي العلاقات والتفاعلات التي يفرضها المجتمع عليهم. [براهيمي، المقاربة السوسيولوجية للأخلاق في المجتمعات الحديثة، مجلّة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلّد 12، ص 220]

بالنسبة إلى دوركهايم فإنّ ثقافة مجتمعٍ ما تتكوّن من مجموعة من التمثيلات الجماعية (Collective representations). ويستخدم الأفراد في ذلك المجتمع هذه التمثيلات لفهم الواقع من حولهم، ذلك الفهم الذي يستمدّونه من الأساليب التي شكّلت عقولهم ثقافيًّا في أثناء عملية التنشئة الاجتماعية التي تبدأ من الولادة، وتعدّ المسؤولة عن جعل كلّ فرد عضوًا حقيقيًّا في مجتمعه. وما التمثيلات الجماعية أو (التصنيفات) إلّا عدسات اجتماعية يدرك الأفراد من خلالها العالم والواقع من حولهم، فهي الأطر التي يفكّرون من خلالها والقواعد التي يتصرّفون على أساسها. إنّ الثقافة، وهي على شكل تمثيلات جماعية، تحوّل

العالـم كمـا يدركـه الأفـراد إلى عالـم يركّـز على الرمـوز. وبهـذا تتحـوّل الظواهـر الطبيعيـة إلى موضـوعات ثقافيـة. ولا يملـك البـشر مدخـلًا مبـاشرًا إلى الواقـع، وإنّمـا يتـمّ تشـكيل واقعهـم اجتماعيًّـا بواسـطة الثقافـة الـتي تتألّـف مـن نظـام رمـزي ينتـشر في التمثيـلات الجماعيـة؛ وهـذه الأخـيرة تكـوّن لأيّ مجتمـعٍ مـا يسـمّى بـ"المجتمـع المنظّـم" أو "المنسَّـق" مـن خـلال النظـرة الشـاملة والكاملـة للعالـم مـن حـوله. ووفـق دوركهايـم، فـإنّ المجتمـع مـن خـلال النظـرة الشـاملة لـكلّ عنـاصره يشـكّل بمجملـه وحـدةً متكاملـةً وقاعـدةً تنظّـم الأفـكار والأفعـال والعلاقـات الاجتماعيـة داخـل المجتمـع؛ لذلـك رفـض دوركهايـم مثـل ماكـس فيـبر (Max Weber) التفريـق بـين العوامـل الثقافيـة مثـل الأخـلاق والمعتقـدات الدينيـة، والعوامـل الاجتماعيـة والاقتصاديـة الأكـثر مادّيـةً كتقسـيم العمـل، وبالنهايـة يؤكّـد دوركهايـم أنّ الثقافـة هي الـتي تشـكّل المجتمـع وليـس العكـس.

[انظـر: أمطـوش، دروب علـم الاجتـماع، ص 230 – 232]

توجّـه دوركهايـم في دراسـته للمجتمعـات البدائيـة وركّـز بشـكلٍ خـاصٍّ على الجوانـب الدينيـة ـ الثقافيـة عنـد السـكّان الأصليـين في المجتمعـات الأسـترالية.

يقـول دوركهايـم: «إنّ الأفـكار الدينيـة والأخـلاق والقيـم هي حجـر الأسـاس في المجتمعـات كلّها. وهي العنـاصر البالغـة الأهمّيـة في أيّ نظـام اجتمـاعي، وليسـت العوامـل المادّيـة كتقسـيم العمل».

[دوركهايم، الدين والمجتمع، انظر: https://triumphias.com/blog/emile-durkheim-religion-and-society]

إنّ دور الثقافـة يشـبه دور الديـن، وهـو أنّهـا تعمـل كرابـط بـين الأفـراد مـن خـلال نـشر الأعـراف والقيـم المشـتركة. والثقافـة كالديـن تقسّـم المجتمـع إلى قسـمين؛ الأوّل مقـدّس، والثـاني مدنّـس أو دنيـوي؛ إذ تحـدّد الثقافـة وتوضّـح للأفـراد في ذلـك المجتمـع القيـم الأخلاقيـة الرئيسـة الـتي يجـب عليهـم العمـل بهـا، بـل الاعـتزاز بهـا أيضًـا مـن خـلال تحديـد الأمـور السـيّئة أخلاقيًّـا. إنّ مثـل هـذه الأنمـاط الثقافيـة تعـزّز في المجتمـع باسـتمرار بواسـطة طقوسـه. وتشـكّل هـذه الطقـوس علاقـة ترابط مشـتركة بـين أفـراد المجتمـع، يجدّدون مـن خلالهـا ولاءهـم والتزامهم بالقيـم، وتنغـرس المعتقـدات والمعايـير في وعي الأفـراد، وتحثّهـم على فعـل سـلوكيات مرغـوب بهـا اجتماعيًّـا. وينطبـق هـذا على المجتمعـات الحديثـة، كمـا ينطبـق على غيرهـا؛ إذ تعـدّ الاحتفـالات الشـعائرية الكـبرى مثـل تنصيـب رئيـسٍ مـا تعزيـزًا للقيـم الدينيـة الرئيسـة كالقدسـية (مثـل قدسـية الديمقراطيـة)؛ وهكـذا يؤكّـد المواطنـون إيمانهـم بهـذه المعايـير مـن جديـد، ويتـمّ الحفـاظ على الأنمـاط الاجتماعيـة في المجتمـع. [انظـر: إنغليـز، مدخـل إلى سوسـيولوجيا الثقافـة، ص 54]

من خلال هذه الطقوس، يحافظ المجتمع على وجوده ويدمج الأفراد في البيئة الاجتماعية، ويمارس الضغط عليهم للتصرّف والتفكير على حدٍّ سواء. في حين أنّ تحليل دوركهايم يتعلّق بسياقات دينية بشكل واضح، فمن المهمّ أن نلاحظ أنّ عمليات التفاعل الطقسي التي يصفها تحدث في سياقات مختلفة وأقلّ رسميةً. ويمكن اعتبار العمليات الطقسية جزءًا من الحياة اليومية ولها دور فعال في تنظيم التضامن الجماعي والعلاقات بين الأشخاص في المؤسّسات الاجتماعية المختلفة وعلى مستويات مختلفة من الشكليات. على الأقلّ من الناحية الرمزية؛ لأنّها تعبّر عن قوّة موجودة بالفعل، وهي قوّة المجتمع؛ ولذلك لا يمكن استبعاد الدين والمعتقد الديني والتجربة الدينية باعتبارها مجرّد خيالات أو أوهام. [انظر: المصدر السابق، ص 67 - 70]

وهنا يمكن أن نقول: إنّ الدين موجود في بيئات الأفراد المجتمعية، وهو يستمرّ بالتوارث الاجتماعي المتواتر، فينشأ الناس غالبًا على دين آبائهم، وإن كان هذا لا ينطبق على الجميع، ولا يعني بالضرورة تطابق الأجيال الجديدة مع القديمة. وفي المحصلة يبقى الدين أمرًا واقعًا، وهو في المجتمعات المحافظة شديد الحضور كمًّا وكيفًا، كما أنّه وثيق الارتباط بالمحافظة، ويعزّزها ويتعزّز بها بشدّة! وفي هذه المجتمعات يلعب الدين دورًا محوريًّا في الحياتين العامّة والخاصّة، وهو يحتل الحيّز الأوسع من الثقافة، ويشكّل القاعدة الأساسية للتشريع والأخلاق. إنّ الدين ما يزال الميدان الرئيسي الذي يستوعب النشاط الروحي للناس، ويلبّي حاجتهم إلى ما هو مقدّس ومثالي في حياتهم، وهو يعطي الأجوبة والحلول الكافية لأسئلة من قبيل: ماذا بعد الموت؟ وما غاية الحياة؟ أوعن طريق الحساب والثواب والعقاب في العالم الآخر تتحقّق العدالة المرجوّة الغائبة في هذا العالم وينتصر الخير على الشرّ؟! كما أنّه ما يزال أساس الأخلاق والشرائع والسلطات في المجتمعات المحافظة بشكل مباشر.

ثانيًا: دوركهايم والضمير الأخلاقي ـ الجمعي في حياة المجتمع

من المنطق حسب دوركهايم أنّه لا يمكن للفرد المنعزل تطوير أخلاق (Ethics) ذات فائدة جماعية؛ نظرًا للمصالح الأنانية، والشيء نفسه بالنسبة لتجمّعات الأفراد، وعليه لن يبقى إلّا المجتمع؛ لأنّ الغايات الأخلاقية حسب دوركهايم هي تلك التي يكون موضوعها المجتمع، وبالتالي فإنَّ الفعل في إطار أخلاقي هو فعل من أجل المصلحة الجماعية. فالمجتمع كما يقول دوركهايم ليس بشيء غريب عن الأخلاق كما كنّا نعتقد ولا يمكن أن تكون له آثار ثانوية، بل هو عكس ذلك شرط ضروري للأخلاق؛ لأنّه ليس مجرّد تواجد بسيط

للأفـراد مـع بعضهـم بحيـث يحمـل كلّ فـرد ضمـيرًا أخلاقيًّـا خاصًّـا بـه، فالإنسـان ليـس بكائـن أخـلاقي إلّا لأنّـه يعيـش داخـل مجتمـع؛ ذلـك أنّ الفـرد الذي يحمـل أخـلاق جماعتـه ينبـغي أن يتضامـن معهـا ويتغـيّر بتغـيّر هـذا التضامـن (Solidarity)، وهـذا مـا يُعطـي قـوّة الضمـير الأخـلاقي (Moral conscience) في الجماعـة والمجتمـع. [براهيمي أم السعود، المقاربة السوسيولوجية للأخلاق في المجتمعات الحديثة، مجلّة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلّد 12، ص 234]

يـرى إميـل دوركهايـم أنّ الضمـير الأخـلاقي يتشـكّل مـن خـلال التنشـئة الاجتماعيـة (Socialization)؛ إذ يكتسـب الفـرد قيمـه ومعاييره الأخلاقيـة مـن خـلال تفاعلـه مـع المجتمـع، وليـس كـشيء فطـري أو ذاتي. فالضمـير الأخـلاقي هـو في جوهـره ضمـير جمـاعي يعـبّر عـن مجموعـة المعتقـدات والقيـم المشـتركة الـتي توجّـه سـلوك الأفـراد داخـل المجتمـع. اعتقـد دوركهايـم أنّـه حلّ المـأزق الديـني ـ الأخـلاقي للمجتمـع الحديـث يكمـن في تأكيـده أنّ الديـن هـو في جوهـره عبـادة غير مبـاشرة للمجتمـع نفسـه. في العـصر الحديـث، لا يحتـاج النـاس إلّا إلى توجيـه مشـاعرهم الدينيـة نحـو الرمـوز المقدّسـة الـتي تمثّـل المجتمـع. تعـدّ الحيـاة الجماعيـة للمجتمـع مصـدرًا وموضـوعًا للديـن. ويجـادل دوركهايـم بـأنّ الأفـراد الذيـن يشـعرون بالتبعيـة لقـوّة أخلاقيـة خارجيـة ليسـوا ضحايـا للهلوسـة، بـل هـم أعضـاء متجاوبـون في المجتمـع.

مـن وجهـة نظـر دوركهايـم، ليـس الديـن مجـرّد نتـاج بنـاء اجتمـاعي، بـل هـو المجتمـع نفسـه مقـدّس. وزعـم أنّ الآلهـة الـتي تُعبَـد جماعيًّـا ليسـت سـوى إسـقاطات لقـوّة المجتمـع. فـإذا كان الديـن يُمثّـل جوهريًّـا الصفـات السـامية للمجتمـع، فـإنّ تراجـع الممارسـات الدينيـة التقليديـة لا يعـني بالـضرورة انحـلاله. عـلاوةً على ذلـك، اسـتنتج دوركهايـم أنّ الأفـراد المعاصريـن يحتاجـون فقـط إلى إدراك مبـاشر لاعتمادهـم على المجتمـع، وهـو إدراك كان يُعـبَّر عنـه سـابقًا مـن خـلال الرمزيـة الدينيـة.

يـرى دوركهايـم أنّ روح الانضبـاط والتحكـم في الذات البشريـة تشـكّل قاعـدةً أساسـيةً لأيّ فعل أخـلاقي، وجـزءًا مهمًّـا مـن التنشـئة الاجتماعيـة، وهـذه الأخـيرة الـتي لا تكتمـل بـدون التعلّـق بالجماعـة الاجتماعيـة، بالضمـير الأخـلاقي الجمـاعي للمجتمـع. فالإنسـان حسـب رأيـه، كائـن اجتمـاعي يحتـاج إلى منـاخ أخـلاقي داخـل جماعـة تمامًـا مثـل مـا يحتـاج إلى الأوكسـجين ليتنفّـس. فـإذا كان المجتمـع في تصـوّر دوركهايـم أعلى هيئـة للضمـير والسـلطة الأخلاقيـين، فـإنّ عمليـة التنشـئة الاجتماعيـة تضـع الفـرد دائمًـا في تفاعـل مـع عـدّة جمـاعات اجتماعيـة. عندمـا يكـون الفـرد مـن مجتمـع تقليـدي بسـيط، فإنّـه يسـتطيع الاندمـاج مبـاشرةً في الجماعـة العشـائرية، أمّـا

إذا كان من مجتمع حديث معقّد، فقد يكون في هذه الحالة عضوًا داخل الأسرة، داخل المدرسة، داخل جماعة مهنية، داخل مجتمع محلّي أو عالمي. ولهذه الأوساط الاجتماعية المختلفة قواعد تختلف من حيث النطاق والعمومية؛ ولأنّ القواعد تكون أكثر عموميةً كلّما كانت أقلّ شخصيةً (Less personality)؛ فإنّ الترتيب الهرمي لهذه الأوساط يجعل الأسرة في أدنى مستوًى، لأنّها تقوم بالتنشئة الاجتماعية الأوّلية؛ إذ إنّها تمنح الطفل الدفء والمشاعر الأخلاقية التي تسمح له بالتعلّق بالجماعة الاجتماعية الأولى. غير أنّ الأسرة النووية الحديثة حسب رأيه، قد فقدت وظيفتها الكيفية والكمّية وبعضًا من مهامّها الاقتصادية والسياسية والقانونية لمجالات اجتماعية أخرى، بل إنّها اصطدمت كذلك بمنافسة قويّة على وظيفة التنشئة الاجتماعية التي كانت تقوم بها الأسرة. [انظر: فورنييه، إميل دوركهايم، ص 458]

وعليه فإنّ الفرد وفق دوركهايم إذا استطاع التكامل داخل الجماعة والمجتمع من خلال عملية التنشئة الاجتماعية واندمج داخل الجماعات الاجتماعية المختلفة، واستوعب الترتيب الهرمي للحقوق والواجبات وفق الضمير الأخلاقي للجماعة والمجتمع، يمكنه إذذاك أن يتقبّل المثل اللاشخصية (Impersonal ideals) ويدافع عنها، كما يمكنه أن يتقلّد مسؤولية التضامن الناشئ عن التعاون من خلال عملية التفاعل الاجتماعي. [انظر: لارمور، الحداثة والأخلاق، ص 147]

يرى دوركهايم أنّ المجتمع (The Society) يمتلك ضميرًا جماعيًّا يمثّل مجموعة القواعد والمعايير والقيم التي يشترك فيها أفراد المجتمع. ويعتقد دوركهايم أنّ الضمير الأخلاقي لا يولد مع الفرد، بل يتشكّل من خلال عملية التنشئة الاجتماعية، أي التفاعل مع الآخرين واكتساب القيم والمعتقدات المشتركة. إنّ المجتمع هو المصدر الأساسي للأخلاق، وإنّ الفرد يكتسب قيمه ومعاييره الأخلاقية من خلال تفاعله مع المجتمع.

إنّ المجتمع ـ كما يقرّ دوركهايم بصفة قاطعة ـ هو الذي يخرجنا من أنانيتنا ويجبرنا على الأخذ بالحسبان مصالح غير مصالحنا، وهو الذي يعلّمنا السيطرة على عواطفنا وغرائزنا ويعلّمنا أن نحرم أنفسنا وأن نضحّي ونجعل أهدافنا الشخصية بعد أهدافٍ أعلى منها. ومن هنا يستنتج دوركهايم كيف يكون الإنسان لو نزع عنه كلّ ما منحه المجتمع ليكون له ضمير أخلاقي؟ يجيب دوركهايم بقوله: «إنّ الإنسان سيسقط لا محالة إلى مرتبة الحيوان، هذا الأخير لم يبق بعده شيئًا ممّا تعلّمه في حياته الفردية، في حين أنّ نتائج الخبرة البشرية تبقى تقريبًا كلّها محفوظةً بكلّ تفاصيلها بفضل التقاليد الشفهية والكتب والأدوات المتنوّعة التي تنتقل من جيل إلى جيل، فحكمة الإنسان تتراكم بدون حدود وهذا التراكم غير المتناهي هو الذي

يجعل الإنسان لا يتعالى عن الحيوان، بل يتعالى على نفسه، ومرّةً أخرى هذا التراكم لم يكن ممكنًا إلّا داخل المجتمع ومن خلاله يتكوّن الضمير الأخلاقي للفرد ومع الجماعة والمجتمع» [انظر: فورنييه، إميل دوركهايم، ص 471].

بعبارة أخرى، وبحسب تحليل دوركهايم أنّ التربية الأخلاقية هي عملية أساسية لتشكيل الضمير الأخلاقي؛ إذ يتعلّم الفرد القواعد والسلوكيات المقبولة اجتماعيًّا. إنّ الشعور بالانتماء إلى الجماعة والالتزام بمعاييرها وقيمها أمر ضروري لتكوين الضمير الأخلاقي. يوضّح دوركهايم أنّ الضمير الأخلاقي ليس مجرّد تقليد للعادات والتقاليد، بل هو نظام متكامل من القواعد والأوامر والنواهي والتفضيلات والقيم التي توجّه سلوك الفرد. يرى دوركهايم أنّ الأخلاق ظاهرة اجتماعية تتأثر بالبناء الاجتماعي وتتغيّر بتغيّر المجتمعات. [انظر: والاس، النظرية المعاصرة في علم الاجتماع، ص 57 – 59]

وكذلك يرى إميل دوركهايم أنّ الضمير الأخلاقي هو نتاج التفاعل الاجتماعي والاندماج في المجتمع، وليس مجرّد خاصّية فردية. ويرى أنّ الأخلاق تنشأ من الوعي الجمعي للمجتمع، وأنّ الأفراد يتبنّون هذه الأخلاق من خلال التنشئة الاجتماعية. وبالتالي، فإنّ الضمير الأخلاقي للفرد هو انعكاس للقيم والمعايير الأخلاقية السائدة في المجتمع. إنّ الدين والأخلاق مرتبطان ارتباطًا وثيقًا، فالأخلاق تعدّ من أهمّ جوانب الدين، بل هي جوهر الدين في الكثير من الأديان. يعدّ الدين مصدرًا للأخلاق وقيمًا توجّه السلوك البشري. يرى بعضهم أنّ الأخلاق هي أساس الدين، وأنّ الدين لا يمكن أن يكون دينًا حقيقيًّا دون الأخلاق. ربّما ليست الأخلاق هي الدين، ولا الدين هو الأخلاق، لكن كي تكون الأخلاق واجبةً لا ممكنةً فحسب، فمن الضروري أن تقوم على الإيمان. ولا يشترط اعتبار الدين أخلاقًا واعتبار الإيمان الديني قرارًا فرديًّا، فقد يكون عرفًا اجتماعيًّا موروثًا، وبالتالي تكون علاقته بالأخلاق ناجمةً عن الممارسة، كما في حالة علاقة الأعراف الاجتماعية بالأخلاق، أو يكون الدين تعويضًا جماعيًّا يفوّض الالتزام بسلوك محدّد في حالة غياب حرّية الاختيار، أو غياب العقلانية اللازمة لحساب النتائج الاجتماعية للخيار الأخلاقي. [انظر: أمطوش، دروب علم الاجتماع، ص 237 – 239]

ووفق دوركهايم، فإنّ الدين ممارسات وعبادات تعيد إنتاج الجماعات والمجتمعات، وقد يشكّل هذا النموذج قاسمًا مشتركًا بين وظيفتي الدين والأخلاق؛ لأنّ الأخلاق هي قواعد في سلوك أفراد الجماعة تشتقّ منها، وتحافظ عليها في الوقت ذاته، وتُعيد إنتاجها. فلا أخلاق من دون مرجعية جماعية، ومن دون جماعة أو مجتمع. ولا أخلاق إلّا وتساهم في المحافظة على تماسك المجتمع. [انظر: بشارة، الدين والعلمانية في سياق تاريخي، ج 1، ص87 - 90]

وفي هـذا التفسـير للديـن لا بـدّ أن يكـون هنـاك تقاطـع بـين الوظائـف والمؤسّسـات الـتي تحافـظ على الجماعـة وتعيـد إنتاجهـا، وهـذا التقاطـع في وظيفـتي الديـن والأخـلاق لا يعـني أن يتطابقـا بالـضرورة؛ فثمّـة أمـور في الديـن غـير الأخـلاق قـد يحوّلهـا بعـض المتديّنـين إلى أسـاس التديّـن أو (التقديـس). وفي الأخـلاق يمثّـل الجانـب الدنيـوي عنـاصر غـير الديـن تؤسّـس لإيمـان قيـمي، وهي ليسـت بالـضرورة جـزءًا مـن عقيـدة دينيـة. [انظر: براهيمي أم السعود، المقاربة السوسيولوجية للأخلاق في المجتمعات الحديثة، مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلّد 12، ص 239 - 241]

إنّ الإنسـان بوصفـه كائنًـا فريـدًا يرغـب دومًـا في رسـم حـدود فاصلـة بينـه وبـين شركائـه في المجتمـع، فالإنسـان كائـن متديّـن، والديـن ظاهـرة مـن أهـمّ الظواهـر المميّزة للجمـاعات البشريـة منـذ بدايـة تكوينهـا؛ فقـد تـرك الإنسـان البـدائي إلى جانـب أدواتـه شـواهد عـدّةً على وسـطه الفكـري تشـير بدورهـا إلى بـوادر دينيـة لا لبـس فيهـا، فـكلّ ارتقـاء روحي يقـود إلى الإرتقـاء الفكـري في حيـاة الإنسـان وحضارتـه، وهـذا جـاء نتيجـة البـوادر الدينيـة الأولى له، فالديـن ليـس مجـرّد نظريـة أو مجموعـة أسـاطير، لكـنّ أصـل الديـن الحقيـقي متجـذّر في القيـم الأخلاقيـة للجماعـة والمجتمـع، وإنّ الجماعـة تقـوم على المشـاركة في القرابـة وأخـلاق مجتمعهـا. إنّ الأصـل في الديـن هـو الحفـاظ على المجتمـع وضمـان سـلامته.

وضمـن نطـاق واسـع مـن التقاليـد الأخلاقيـة، تتعايـش التقاليد الدينيـة مع أطـر القيـم العلمانية مثـل الإنسـانية والنفعيـة وغيرهـا. هنـاك أنـواع عديـدة مـن القيـم الدينيـة، فالديانـات التوحيديـة مثـل الإسـلام واليهوديـة والمسـيحية تحـدّد الصـواب والخطـأ مـن خـلال القوانـين والقواعـد الـتي وضعتهـا شرائـع الديـن. تميل التقاليـد الدينية الأخـرى إلى أن تكون أقـلّ إطلاقًا. على سـبيل المثال، في البوذيـة، تلعـب نيّـة الفرد والظـروف دورًا في تحديد مـا إذا كان الفعـل صحيحًا أم خطأً. وتشـير باربرا سـتولر ميلـر (Barbara Stoller Miller) إلى وجـود تبايـن إضـافي بـين أخـلاق التقاليـد الدينيـة، قائلـةً إنّـه في الهندوسـية، عمليًّـا، يتـمّ تحديـد الصـواب والخطـإ وفقًـا لفئـات المرتبـة الاجتماعيـة، والقرابـة، ومراحـل الحيـاة.

إنّ مسـألة الصلـة بـين الأخـلاق والديـن هي مسـألة الصلـة بـين الأفـكار في العقـل البـشري؛ إذ إنّ تقـدّم هـذا العقـل نحـو الكمـال، لا يهـمّ إذا كان الديـن في المـاضي يعلّـم البغـض واليـوم يعلّـم الحـبّ، فالأخـلاق لا تنـفي الديـن، ومـع ذلـك فهنـاك خصائـص كثـيرة يتميّز فيهـا الديـن مـن الأخـلاق حـتّى في الأجـزاء الـتي يتّفـق فيهـا معهـا، فـإذا كانـت تعاليمهمـا الصحيحـة متطابقـةً

في جـزء كبـير منهـا، فهنـاك جـزء فيـه اختـلاف يخـصّ الأسـس، فالديـن قبـل كلّ شيء عمـل وحيـاة، والأسـاس هـو مبـدأ التحقيـق، ومـن ناحيـة أخـرى هـو صلـة الفـرد بـالإله، فنزعتـه عالميـة أساسًـا؛ لأنّـه بمسـاواة حاسـمة بـين الإنسـان وبقيـة الكائنـات، ولأنّ الديـن يسـتهدف كذلـك التأثـير في الإنسـان باطنيًّـا وظاهريًّـا، وإذا كانـت الأخـلاق تـرى أنّ الإنسـان يجـب ألّا يعمـل ويحـبّ كمـا يريـد، بـل كمـا يسـتطيع، فالديـن هـو الذي يأمـره بالمحبّـة ويهبـه القـوّة على الحـبّ. [بوتـرو، العلـم والديـن في الفلسـفة المعـاصرة، ص 295 و296]

مثلمـا ينتـج الديـن معـنًى للحيـاة، ينتـج أيضًـا القيـم الروحيـة ويغذّيهـا على الدوام بمـا تتطلّبـه مـن عبـادات وطقـوس وشـعائر؛ كي تظـلّ جذوتهـا مشـتعلةً ولا تنطفـئ في روح الإنسـان. كذلـك يعمـل الديـن على إرواء الظمـإ للمقـدّس، وهـذا الظمـأ يعيشـه كلّ كائـن بـشري، وإن كان أسـلوب إروائـه يختلـف باختـلاف الإنسـان، ويتنـوّع بتنـوّع الثقافـة والزمـان والمـكان. ويبني الديـن الإرادة ويعزّزهـا على الدوام.

وللديـن وظيفـة عظـمى في إثـراء القيـم الأخلاقيـة، هـذه القيـم يسـتقلّ العقـل العمـلي في إدراكهـا، لكـنّ الديـن يعمـل على تكريسـها وتقنينهـا في سـياق إنسـاني. يقـول إيمانويـل كانـط: «الديانـة هي القانـون الذي فينـا؛ إذ تسـتمدّ قوّتهـا مـن مـشرّع أو قـاضٍ فوقنـا جميعًـا. الديانـة أخـلاق مطبّقـة على معرفـة الإله. إذا لـم تكـن الديانـة مرتبطـةً بالأخـلاق تتحـوّل إلى سـعي مـن أجـل كسـب الإنعامـات ... إلـخ، وإنّ الطريـق الوحيـد الذي بواسـطته يمكننـا إرضـاء الإله هـو أن نصبـح أشـخاصًا أفضـل ممّـا نحـن عليـه» [انظـر: كانـط، في التربيـة والإجابـة عـن سـؤال مـا التنويـر، ص 127].

في النهايـة تكـون الغايـة الكـبرى للديـن هي إحـداث تغـيّر أو تحـوّل في دنيـا البـشر ووجودهـم، تحـوّل نحـو الأفضـل والأكمـل، وارتفـاع نحـو المتعـالي، عـبر تكويـن علاقـة مسـتقيمة مـع الاله، بإيمـان أو إخـلاص أو معرفـة نورانيـة بحقائـق الحيـاة وتحوّلاتهـا. إنّ الغايـة الكـبرى للديـن هي الكمـال الإنسـاني. [زايـد، الديـن والأخـلاق والمعـروف.. التمايـز والتكامـل، مجلّـة التفاهـم، العـدد 55 و56، ص 51]

والأخـلاق بوصفهـا مبـادئ حاكمـةً لمـا ينبـغي أن يكـون في مجـالات الحيـاة المهنيـة والعمليـة المختلفـة، فهنـا تتطلّـب وجـود الأنـا والآخـر، ومـن ثـمّ فإنّهـا جـزء مـن تكويـن المجتمـع والثقافـة. وتكتسـب الأخـلاق مـن هـذه الصفـة الجماعيـة أهمّيتهـا للجماعـة والفـرد، فـكلّ الاختيـارات أو القـرارات الأخلاقيـة لهـا تأثير على الآخريـن، وعلى حياتهـم وأوضاعهـم الاجتماعية ومكانتهم وسـعادتهم.

وكخلاصة يرى دوركهايم أنّ الضمير الأخلاقي يتشكّل من خلال التفاعل الاجتماعي والتنشئة الاجتماعية، وأنّ المجتمع هو المصدر الأساسي للأخلاق، وأنّ التربية الأخلاقية تلعب دورًا حيويًّا في تشكيل هذا الضمير.

ثالثًا: الدنيوي والمقدّس في مجتمع اليوم

كانت حياة الإنسان في العصر القديم مشبعةً بالقداسة، وفي العصر الحديث أصبحت دائرة المقدّس أقلّ اتّساعًا، ومهما بدت دائرة المقدّس ضيّقةً في حياة مجتمع اليوم، أو بدت الحضارات التي نشهده فيها، من أكثرها بدائيةً إلى أكثرها تطوّرًا وحداثةً، تتّصف بالتنوّع، فالثابت أنّ مفهوم المقدّس احتفظ على مرّ التاريخ الديني وما يزال بأصالة متميّزة أضفت عليه وحدةً مقدّسةً لا نزاع فيها.

في المجتمع الحديث، يشير المقدّس إلى الأبعاد الروحية أو الدينية التي تعدّ مقدّسةً وبعيدةً عن الحياة اليومية، بينما يشير الدنيوي إلى الأمور العادية والروتينية التي يشملها الحياة اليومية. يعكس هذا التمييز بين المقدّس والدنيوي كيف يفهم الناس العالم ويترتّب عليه تأثيرات اجتماعية وثقافية مهمّة. ومهما تفنّن الإنسان في المجتمعات الحديثة في نزع ما هو مقدّس عن الحياة، فإنّه لا يستطيع أن يعيش فيها بدونه. ويبدو أنّ المجتمعات الغربية الحديثة قطعت شوطًا كبيرًا في اتّجاه نزع القداسة عن حياتها، والواقع أنّها لم تسر في اتّجاه نزع المقدّس، بل في اتّجاه اكتشاف مقدَّس جديد، قوامه المادّة.

المقدّس يشير إلى الأشياء أو الأماكن أو الأفكار التي تعدّ مخصّصةً أو منفصلةً لخدمة إلهٍ ـ أو قوّة روحية أعلى ـ أو عبادتها. مثلًا: الأماكن المقدّسة مثل الكنائس أو المساجد أو المعابد، الأشياء المقدّسة مثل الكتاب المقدّس أو القرآن الكريم، والأفكار المقدّسة مثل الأديان أو العقائد. يحدّد المقدّس المعتقدات والقيم التي تشكّل سلوك الأفراد والمجتمعات، ويمنحهم إحساسًا بالهوية والهدف.

يشمل الدنيوي الأمور العادية أو الروتينية أو الأساسية في الحياة، مثل العمل أو المدرسة أو العلاقات الشخصية أو الأنشطة الترفيهية. مثلًا: الوظائف والمهن، والمواصلات اليومية، والتعاملات الاجتماعية، والأنشطة الترفيهية كالرياضة أو الفنّ أو الموسيقى. ويعكس الدنيوي الحياة اليومية للأفراد وكيف يترتّب عليهم مسؤوليات معيّنة في المجتمع.

يشير المقدّس إلى الأمور الخارقة للطبيعة الخارجة عن سيطرتنا، وفي الوقت نفسه يشمل الدنيوي ما يصادفه الناس أو يستخدمونه في حياتهم. إذن عالما المقدّس والدنيوي متنافيان. وحسب دوركهايم، جمعت هذه الطقوس والمعتقدات والأفكار والمفاهيم الدينية الناس من مختلف مناحي الحياة. كما أنّها وحّدتهم ودمجتهم، ممّا عزّز التشارك في المشاعر الجماعية. إنّ القوّة الدينية ليست إلّا الشعور الذي تلهم الجماعة أعضاءها به. لكنّه شعور مصمّم خارج الوعي الذي يقبله ويضفي عليه الموضوعية. ولكي يضفي الوعي الموضوعية على هذا الشعور، يقوم بالتركيز على موضوع يصبح بالتالي مقدّسًا. [والاس، الدين وجهة نظر أنثروبولوجية، ص 64]

إنّ فكرة الدين وعاطفته تتحقّقان من خلال النشاطات الجماعية، فالجماعة هي المصدر الأساسي والسبب الكافي لظهور الدين؛ ذلك بأنّ أفكارنا وممارساتنا الدينية ترمز إلى الجماعة الاجتماعية، وهذا هو الذي يجعل التمييز بين ما هو مقدّس ودنيوي أو علماني تمييزًا يتّسم بالعمومية ويؤدّي وظائف جوهريةً في الحياة الاجتماعية بوجه عامّ. إنّ الضمير الجماعي هو مصدر الدين، وهو الذي يحدّد موضوعه، فالمقدّس إذن مشخّص في قاعدة المجتمع. وهذا ما يجعله مؤثّرًا وضابطًا للسلوك، فسلطة الدين هي سلطة الضمير الجمعي في المجتمع. [انظر: الزيباري، النظرية السوسيولوجية المعاصرة، ص 139]

كانت الأخلاق فضيلةً مقدّسةً في الماضي، لكنّها الآن انحرفت عن مسارها بفعل المجتمع الحديث. كان الناس يستشيرونها، أمّا اليوم، فلا وجود للأخلاق بوصفها حقيقةً إلّا إذا انتهك الشخص مبدأً أخلاقيًّا معيّنًا. وهكذا، تغيّر تعريفها من شخص لآخر، ممّا جعلها أكثر علمانيةً. على الأقلّ، لا يربط أهل الغرب أنفسهم بالمقدّس والدنيوي، ولا ينغمسون في الطقوس والمعتقدات، وما إلى ذلك. تندرج الأيديولوجيات الدينية ضمن الممارسات الخاصّة، وإنّ التفسير السوسيولوجي العلماني للدين يستند إلى فكرة أساسية تتلخّص في أنّ هناك نوعًا من التماثل فيما يتعلّق باتّجاهات الناس نحو الإله والمجتمع، فكلاهما يخلق لدى الفرد إحساسًا بالألوهية وهما كذلك يتمتّعان بسلطة أخلاقية ويدفعان الإنسان إلى الإخلاص والتضحية، وهما بالإضافة إلى ذلك يكسبان الفرد سلوكًا غير عادي، ومعنى ذلك كلّه أنّ شعور الفرد بالاعتماد على قوّة أخلاقية خارجة عنه لا يفسّر بأنّه استجابة لضرب الوهم والخيال، بل إنّ ذلك في الواقع نتيجة مترتّبة على عضويته في المجتمع. [المصدر السابق، ص 140]

يشهد تاريخ العالم أنّ الدين بكلّ صوره المتعدّدة كان دائمًا عنصرًا أساسيًّا في حياة الإنسان، فمن طبيعة غالبية البشر أن تنظر إلى أبعد من ذاتها، ولكنّ هذه الرؤيا قد أصبحت

غامضةً، وأضحى الإنسان يعيش حالة من الفوضى والاضطراب. فالمشكلات المعاصرة التي تواجه الدين ليست بخافية عليه؛ لأنّه يعيش العصر الحالي بوعي، وعلى الرغم من اهتمام الكثيرين بالدين، فإنّ هناك إحساسًا بعدم قيمة الدين نتيجةً لعزله عن حياة الفرد، وفشله في عرض قيمه بصورة تجيب على المشكلات التي تعترض الإنسان في مجتمع اليوم.

وثقافة الإنسان اليوم سطحية، فهو غنيٌّ بالآلات وفقير في الأهداف، فقد ذهب اتّزان العقل الذي نشأ ذات يوم من عمق المقدّس في الدين، وانتزع الدنيوي منه في مجتمع اليوم الأسس المتعالية لأخلاقه، وبدا العالم كلّه مستغرقًا في فردية مضطربة، ويفتقر إلى الجانب الروحي، فالبشرية عمومًا في العصر الحاضر قد وصلت إلى معرفة كافية لخلق حضارة عظيمة بعيدة عن المقدّس، ولكنّها لم تصل بعد إلى حكمة كافية لضبط حضارة الدنيوي والمحافظة على التوازن بين كليهما [الزاهي، المقدّس والمجتمع، ص 65 - 68]، فقد فقد الدين ومعه الأخلاق قيمتهما وصدقهما، ومن دون أن ينمو الإنسان نموًّا روحيًّا يتناسب مع النموّ الدنيوي في مجتمع اليوم الذي وصل إليه، فإنّ المستقبل سيكون خطيرًا على المحافظة على المقدّس.

للأزمة الدينية (Religious Crisis) عدّة عوامل أدّت إلى تخلخل وضع الدين في مجتمع اليوم من أهمّها التطوّر والتقدم العلمي والتقني، أي الدنيوي الذي أكّد وما زال يؤكّد أهمّية العقل والتجربة، فبرز في ضوء ذلك نوع من التحدّي للمقدّس، أي للإيمان والدين القائم على الطقوس والمعتقدات والوحي والإلهام، كما أدّى إلى انتشار الدنيوي والعلمانية بوصفها اتّجاهًا ثقافيًّا إلى التقليل من شأن الدين في حياة الإنسان والمجتمع اليوم، ومن هنا انتشرت دعوات كثيرة لتنحية الفكر الديني من مجالات الحياة كافّةً [حسين يوسف، الاتّجاه الديني المعاصر لدى الشباب، ص91 - 96]، ويفسّر العالم ومجتمع اليوم بمعزل عن الإله؛ لأنّه لا يحتاج إليه.

إذن في مجتمع اليوم ثورة قائمة في مملكة الروح أو المقدّس، فقد كان الإنسان سابقًا يحسّ بأنّه يعيش على مرأًى من رقيب قدير، ولكنّه اليوم يحسّ أنّه لا رقيب عليه إلّا ضميره وأحيانًا أقرباؤه وجيرانه، والقليل من الناس يتصرّف بمسؤولية وكأنّ الأجيال القادمة ترقب ما يفعله، وكانت المشكلة الأخلاقية لكلّ إنسان هي أن يوطّن إرادته على أن تتلاءم وإرادة الإله، وجسّدت المقدمة الكبرى التي ارتكزت عليها جميع الفرص الإنسانية. والآن عندما فقد الإنسان إيمانه بوجود إله سماوي أو قوّة مسلّطة عليه، أصبح عليه أن يجد سببًا آخر غير تجلّي إرادته، ترتكز عليه طرق اختياره للمبادئ الخلقية. [ليبمان، الدين والإنسان المعاصر، ص 135 - 138]

أخيرًا يمكن للإنسان أن يرفض المقدّس، ويضع الدنيوي بكلّ جوانبه في مكانة الأخلاق والسلوك وبقيّة الجوانب الاجتماعية في مجتمع اليوم، وبذلك قد يفقد سعادته الإنسانية وراحته الروحية، وقد تؤخذ منه، وتختلط بعض أهدافه مع بعضها الآخر، فالمقدّس ينظّم الحياة ويؤمّن للإنسان حاجةً روحيةً قد لا يستطيع غير تأمينها. وهذا ما يدفع إلى إعادة النظر في حياة مجتمع اليوم؛ لأنّ الجانب الروحي على قدر كبير من الأهمّية لدرجة أنّ إلغاءه قد يجعل الإنسان تائهًا متعبًا لا يعرف كيف يرتاح.

[AL-BALAG FOUNDATION, Man and Religion, p. 63]

الدين حياةٌ في أُفق المعنى الذي يوقظ الروح والقلب والعقل. الدين نظامٌ لإنتاج معنًى روحي وأخلاقي وجمالي لوجود الإنسان، تفرضه حاجة الكائن البشري الأبدية للمعنى في حياته الفردية والمجتمعية. الدين الذي يمنح حياة الإنسان معناها الوجودي هو الدين الذي يتجلّى في حياة الفرد والمجتمع بتديّن عقلاني روحاني أخلاقي.

التديّن العقلاني الروحاني الأخلاقي قليل الحضور في الحياة، إلّا أنّه التديّن الوحيد الذي يُحدِث أثرًا بالغًا بإثراء الحياة بالقيم، وبتكريس حالة الاعتدال والتوازن في بناء الشخصية وترشيد سلوكها. [الرفاعي، الدين والكرامة الإنسانية، ص 59 و60]

الخاتمة

ممّا سبق ذكره في هذا البحث يمكن أن نستنتج أنّ تحديد مفهوم الدين بشكل تامّ أمر غير ممكن، وأنّ التعريفات التي قدّمها العلماء والمفكّرون لا يمثّل كلٌّ منها إلّا وجهة نظر صاحبها. كذلك الشأن في المقاربة السوسيولوجية لإميل دوركهايم عن الدين بين ما هو مقدّس ودنيوي؛ وذلك لأنّ الدين ـ بوصفه وعاءً للمقدّس وضميرًا أخلاقيًّا للفرد والجماعة ـ يستند إلى حاجة إنسانية متأصّلة لا يستغني عنها. ورغم تحوّل الإنسان نحو الدنيوي عبر نزع القداسة عن بعض المجالات، فإنّ حاجته إلى المقدّس ظلّت قائمةً، ممّا دفعه لخلق "مقدّسات دنيوية" مادّية؛ ولذلك نرى أنّ الإنسان أصبح يدافع عن الدنيوي الجديد تحت شعارات التقدّم والتطوّر والحرّية والديمقراطية وتأليه العلم، وهكذا يثبت البحث أنّ المقدّس ضرورة وجودية في حياة الإنسان.

قائمة المصادر

القرآن الكريم

آدم أوغسطين، ماكس شيلر وتعريفه للدين، موسوعة بريتانيكا:

https://www.britannica.com/topic/religion

ابن منظور، جمال الدين محمّد بن مكرم، لسان العرب، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت،ط 6، 1997 م.

ابن فارس، أبو الحسين أحمد، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، دمشق ، 1979 م.

ابن منظور، جمال الدين محمّد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط 1، 1994م.

أبو زايد، أحمد؛ العلان، منقذة، الدين في حياة الإنسان، سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية، مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية، المجلد 3، العدد 1، اللاذقية، 2011 م.

أحمد زايد، الدين والأخلاق والمعروف.. التمايز والتكامل، مجلّة التفاهم، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، سلطنة عمان، 2020 م.

والاس، أنتوني، الدين وجهة نظر أنثروبولوجية، ترجمة: عبد الله إسلام، فاطمة قرطمة، مراجعة وتعليق وتقديم: محمد عبد الراضي، رضا زيدان، المركز الكاظمي للنشر، مصر، 2020 م.

بوترو، إميل، العلم والدين في الفلسفة المعاصرة، ترجمة: أحمد فؤاد الأهواني، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، القاهرة، 1973 م.

دوركهايم، إميل، الدين والمجتمع:

https://triumphias.com/blog/emile-durkheim-religion-and-society

دوركهايم، إميل، الأشكال الأوّلية للحياة الدينية.. المنظومة الطوطمية في أستراليا، ترجمة: رندة بعث، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت،ط 1، 2019 م.

كانـط، إيمانويـل، في التربيـة والإجابـة عـن سـؤال مـا التنويـر؟، ترجمـة وتقديـم: جوزيـف معلـوف، دار الرافديـن، بـيروت، 2021 م.

أوغسطينوس، مدينة الله، ترجمة: يوحنا الحلو، دار دمشق للنشر، بيروت، 2007 م.

مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، القاهرة، 2014 م.

سـبينوزا، بـاروخ، رسـالة اللاهـوت والسياسـة، ترجمـة: حسـن حنـفي، دار التنويـر للطباعـة والنـشر والتوزيـع، بـيروت، ط 1، 2005 م.

براهيـمي، أم السـعود، المقاربـة السوسـيولوجية للأخـلاق في المجتمعـات الحديثـة.. تحليـل دوركهايـم نموذجًـا، مجلّـة الباحـث في العلـوم الإنسـانية والاجتماعيـة، المجلـد 12، جامعـة قاصدي مربـاح ورقلـة، الجزائـر، 2020 م.

لارمـور، تشـارلز، الحداثـة والأخـلاق، ترجمـة: الـزواوي بغـورة، دار صوفيـا للكتـب والنـشر والتوزيـع، 2022 م.

صليبا، جميل، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982 م.

حسين يوسف، الاتّجاه الديني المعاصر لدى الشباب، دار المنارة، الإسكندرية، 2005 م.

ليجيـه، دانيـال هيرفيـه؛ ويليـام، جـان بـول، سوسـيولوجيا الديـن، ترجمـة: درويـش الحلـوجي، المجلـس الأعلى للثقافـة،ط 1، 2005 م.

إنغلـيز، ديفيـد؛ هيوسـون، جـون، مدخـل إلى سوسـيولوجيا الثقافـة، ترجمـة: لمـا نصـير، المركـز العـربي للأبحـاث ودراسـة السياسـات، بـيروت، ط 1، 2013 م.

والاس، رث؛ وولـف، ألسـون، النظريـة المعـاصرة في علـم الاجتمـاع.. تمـدّد آفـاق النظريـة، ترجمـة: محمـد عبـد الكريـم الحـوراني، دار مجـدلاوي للنـشر والتوزيـع، الأردنّ، ط 1، 2010 م.

الزيبـاري، طاهـر حسـو، النظريـة السوسـيولوجية المعـاصرة، دار البـيروني للنـشر والتوزيـع، عمّـان، ط 1، 2016 م.

الرفـاعي، عبـد الجبـار، الديـن والكرامـة الإنسـانية، مؤسسـة هنـداوي للنـشر، المملكـة المتّحـدة، 2017 م.

الرفاعي، عبد الجبار، الدين والنزعة الإنسانية، دار الرافدين للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2022 م.

عبدالرحمن بدوي، الموسوعة الفلسفية، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 1، 1984 م.

بشارة، عزمي، الدين والعلمانية في سياق تاريخي (الجزء الأوّل): الدين والتديّن، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، 2012 م.

بوخالفة، فتحي، قصّة الخلق والتكوين بين النصّ الديني والأساطير القديمة، دار الساقي للنشر، بيروت، 2024 م.

شلحت، فيكتور، مسألة الله في التاريخ.. من الكتاب المقدّس إلى الظاهرة الدينية المعاصرة، دار المشرق، بيروت، 1998 م.

لالاند، أندريه، الموسوعة الفلسفية، تعريب: خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت،ط 1، 1996 م.

فورنييه، مارسيل، إميل دوركهايم، ترجمة: فاطمة الزهراء أزرويل، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، قطر، ط 1، 2020 م.

مجموعة من أساتذة الجامعات المصرية، مجموعة من الدراسات والبحوث في علم الاجتماع، تحرير: أحمد زايد، مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، مصر، 2006 م.

أمطوش، محمد، دروب علم الاجتماع، دار غيداء للنشر والتوزيع، الأردنّ، 2020 م.

الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، مختار الصحاح، تحقيق: محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، 1995 م.

الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة، في سنن الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، شركة ومكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، 1975 م.

الخشت، محمد عثمان، تطوّر الأديان، نيوبوك للنشر والتوزيع، القاهرة، 2017 م.

الزاهي، نور الدين، المقدّس والمجتمع، قراءة وتعليق: أحمد القاسمي، دار أفريقيا الشرق، المغرب، 2011 م.

ليبمان، والتر، الدين والإنسان المعاصر، دار الوثبة، دمشق، 1980 م.

جونـز، وبـرت ألـون؛ هيلـز، بيفـرلي، إميـل دوركهايـم.. مقدّمـة لأربعـة أعمـال رئيسـية، منشـورات سـيج، كاليفورنيـا، 1986 م.

AL-BALAG FOUNDATION, Man and Religion, Tehran, 1988.

Arnaldo Bagnasco, Marzio Barbagli e Alessandro Cavalli, La religione, in Corso di sociologia, 3 ed., Il Mulino, 30 agosto 2012..

Emile Durkheim, The Elementary Forms of Religious Life, London 19031915-, free press, New York, 1965.

GRISH.b.A.F., Encyclopedia of religion, vol 13, Grolier Incorporated, U.S.A, First Edition, 1892.